# الكتابة، نعم، لكن بأية لغة؟

بقلم الدكتور: غسان سلامة

كل العرب ٢٩/٧/١٩٨٦

- ١ -

أراه يكتب بالعربية واتوقع منحاه القومي الصرف. أقرأه بلغة أخرى وأراه يحاور الغرب مندمجا فيه، في منطقه ومصالحه، من خلال مفرداته. «الترجمة خيانة» قال الايطاليون سابقا، ولكن ماذا عن الكتابة الواحدة بلغات مختلفة؟ ماذا عن الباحث العربي، او المفكر، او المعلّق القادر على الكتابة في أكثر من لغة، أي لأكثر من قارىء، وبالنهاية في سبيل أكثر من هدف واحد؟

اقول هذا لأنه مبني على مأزق حقيقي، يصعب تجاوزه. هذا كاتب سياسي مصري مثلا، تراه يكتب بغزارة في صحف القاهرة ومجلاتها العتيقة، عن الشؤون المصرية، بمفردات مصرية، معتمدا على قيم مصرية ومدافعا بحرارة عن المصالح المصرية. ثم تراه يكتب في مجلات تدّعي القومية (اي انها اساسا، ذات تمويل غير مصري، وموجهة لقارىء غير مصري) فتراه يغيّر اهتماماته، ومفرداته، وقيمه، مدافعا هذه المرة عن «مصلحة قومية عربية عليا». ثم تقرأه بهذه او تلك من اللغات الاوروبية فلا تجد اثرا للمنطق المصري او للمنطق العربي بل ترى فيها يكتب، اما ظلاما سطحيا وصفيا يتمنطق «بعلم السياسة» او «بعلم الاجتماع» كقيمة مطلقة او صورة مثقف من العالم الثالث يؤيد الغرب بحرارة. فتضيع صورة الكاتب في ذهنك، وتتداخل اللغات والمفردات والمصالح والاهتمامات لتشكل، عن الكاتب، صورة معقدة ومشوشة لا تميز فيها الثابت من المتحول (كما قال شاعر كبير)، ولا الصدق من المسايرة (كما قد يقول اي منا).

اننا نعيش، بصورة او بأخرى، من قلمنا. نجد من خلاله سببا للحياة، اذ نسعى بواسطته، نحن عموم اصحاب الثقافة، للتأثير وقد نجد في التأثير بلسما لهزالة سلطتنا، وهشاشة حسابنا المصرفي. هذا ان أثّرنا.

ونعيش ايضا من قلمنا، لانه مورد عيشنا. نكتب لنأكل. نكتب ايضا لأنه يطلب منا ان نكتب، وتقدم لنا، لقاء ذلك، تعويضات (في الاجمال زهيدة حتى الرمزية).

من هنا فالكتابة انتاج وهي تطرح بالضرورة اسئلة اساسية نفضّل احيانا ان نتناساها: انتاج من لمصلحة من؟ والمصلحة هي التي تحدد (بالنهاية) اللغة، على الأقل بالنسبة للقادر على أكثر من واحدة منها.

**الكتابة انتاج،**
**وهي تطرح بالضرورة**
**اسئلة اساسية**
**نفضل أحيانا ان نتناساها:**
**انتاج من لمصلحة من؟**

- ٢ -

الجواب السهل، والى حد ما، التافه هو: اكتب بالعربية فانت عربي تكتب عن العرب، للعرب بالضرورة. لماذا هو جواب تافه؟ لأسباب عديدة تأتي بصورة طبيعية الى الذهن، عندما تتساءل كيف تجيب على دعوة للكتابة بلغة اخرى:

السبب الاساسي برأيي هو ان المثقف العربي، في الراهن من الزمن، قادر على قول امور كثيرة، ومعالجة مواضيع اكثر، ما زالت دون الشروط العادية للرقابة العربية. فالناشر العربي، ناشر المجلة والكتاب والصحيفة على السواء، ادرى بمخاطر الكتابات الحرة وبمشاكل المواضيع المحظورة. لذلك تراه يقف عائقا (احيانا بصدق واحيانا اكثر برياء) امام نشر ما قد يمنع المجلة هنا او يقفل الباب امامها هناك. من هنا، يصبح الاغراء كبيرا (بل تصعب مقاومته) بكتابة حرة (او على الاقل - الأكثر حرية) بلغة اخرى.

سبب آخر له علاقة بالمصداقية، حتى في الأوساط العربية. «فعقدة الخواجا» ما زالت حقيقية حتى الساعة. ولذلك فان هناك عددا من المثقفين والباحثين يشعرون بقدر كبير من الاحباط وسط مجتمعاتهم غير المقدّرة لمواهبهم وأعمالهم فيتجهون صوب الغرب علّه يكون وسيطا ناجحا مع مجتمعاتهم الأصلية. فهذا باحث عربي مجهول في بلده، تنشر له أعمال في الولايات المتحدة، وينتقل اليها حيث يلقى اقرار بقيمته العلمية، ويعود بعدها الى بلده ثانية ليجد فيه، بعد هذه العملية المثلثة، مرورا بالغرب، بعضا من اهتمام وقدرا من استماع.

وتحكى في هذا الصدد قصة مجموعة من المثقفين المصريين حاولت مرارا اقناع الرئيس السادات بالعدول عن مشروع تطويري سياحي للاهرام، كاد ان يقضي تماما على جمالية هذه الآثار الرائعة ولكن هؤلاء لم يلقوا اذنا صاغية من السلطات، حتى نشرت لهم صحيفة اميركية بعضا من انتقاداتهم للمشروع. فاذا بالسياسة تتأثر وتتغير.

سبب آخر للكتابة بغير العربية هو رغبة الباحث بالانخراط في جماعة علمية واسعة، لها ابعاد كونية. وواقع الحال ان الانتاج بالعربية، عندما يطبع وينشر ويمر على مقصات الرقيب سالما معافى، يبقى عرضة للضياع وعدم الاكتراث بسبب مجموعة من الأسباب المتداخلة: منها انعدام مصداقية المثقف، وعدم اهتمام المثقفين بزملائهم وما يكتبونه، بالاساس بسبب انحصار انتشار العربية كلغة وعدم تمكنها من التحول الى لغة عالمية. وواقع الحال ان لغات انشط، كالفرنسية مثلا، هي في طور الانحسار في المجالات العلمية للاسباب ذاتها. مثال على ذلك ان المعهد الايطالي الوطني للعلاقات الدولية استبدل الايطالية بالانكليزية كلغة لمجلته الفصلية في السنة الماضية، بينما ترى عددا من الكتاب الاوروبيين (والاسرائيليين بالمناسبة) يخصصون افضل كتاباتهم للنشر بالانكليزية، والتي هي اقل اهمية من لغتهم الوطنية.

استاذ العلوم السياسية في الجامعة الاميركية في بيروت.

- ٣ -

هذه الاسباب حقيقية ومؤثرة على مسلك المثقف. لكنها ان اخذت لنفسها، قد تحمل المثقف على الجنوح نحو غربة ثقافية حقيقية. فهناك باحثون ومثقفون عرب لا يكتبون اليوم الا بلغات غير لغتهم الام. ويعللون ذلك باسباب صحيحة، وانما مبالغ بها. فهم يعتبرون ان اعطاء انتاج علمي راق للقارىء العربي، هو من نوع ترقيع الثوب البالي بالرقع الجديدة. وان الرقيب العربي قاس بدون سبب وبدون حدود. وان اللغة العربية غير مطواعة للكتابة العقلانية الحديثة. وان الناشر العربي يتصرف بالنصوص المقترحة عليها دون وازع. وان التأثير على اي سلطة عربية هو من المستحيلات بالنظر لطابعها المقفل والاستبدادي.

من هنا، ينتقل هؤلاء، وبدون تحفظ، واحيانا بدون وعي، من مرحلة التشكيك بالقدرة على الكتابة ام على النشر بالعربية الى استنتاج ضرورة الكتابة بغيرها فحسب، حتى يحين موعد اللقاء مع العربية بعد حين قد يطول، اي يوم «ينضج» القارىء، ويصبح الناشر «آدميا» ويغيب الرقيب بدون رجعة. وفي هذا الاستنتاج، برأيي على الاقل، احتقار حقيقي للقارىء العربي، القادر، على رغم ما سبق، على الاستمتاع والتفهم.

- ٤ -

بين هذين الحدين يقف المثقف، المتمكن من أكثر من لغة، متسائلا لمن اكتب؟ لماذا؟ ولأي هدف؟ أحيانا تفرض اللغة نفسها على الموضوع. فتعددية اللغات التي تؤرقني ككاتب عربي أمر لن أكتب عنه بالفرنسية ولا بالانكليزية لانه لا يهمني الا كعربي. وأحيانا تفرض اللغة الاخرى ذاتها لانك تكتب في موضوع تعرف سلفا انك لن تجد ناشرا عربيا واحدا له.

ولكن المسألة تتعدى هذه «المصلحية» في الاختيار. فمع الوقت، والكتابة بلغات عديدة، ينتابك شك حقيقي: ما هي لغتك الأصلية أو على الاقل ما هي لغتك الأولى، هنا، والآن؟ ما هي اللغة التي تخاطب بها نفسك؟ ما هي اللغة التي تجد نفسك مستعدا للكتابة فيها عن ذاتك الحميمية أو عن قناعاتك الأساسية؟

آنذاك، الاضطراب عميق ولا مفر منه. فالشعور بالأصالة تواجهه الرغبة في التواصل. ماذا ان صرفت سنة على كتاب (بالعربية) ولم ينشره احد؟ ماذا بالمقابل ان كتبته بغيرها ولم يقرأه عربي واحد للاستفادة منه؟ فهذه تفاهة ما يقدم لقارىء العربية تبعدك عنها، وهذا شوقك لاهلك والوطن يعيدك اليها.

وبينما انت بين الاخذ والرد، تجد نفسك في مسلك قرره غيرك: اما الناشر الاجنبي المستفيد من ليبرالية مجتمعة، واما الرقيب العربي المنفر لمثقفي وطنه وعصره. تراهما يقرران تدريجيا عمّا تكتب، وبأي طريقة، وبالنهاية فهما يجيبان مستقلين عن سؤال كنت تعتبره ذاتيا الى اقصى الحدود، فيحددان لك، دون اخذ رأيك، دون التنبه لمشاعرك، دون الاهتمام بك، بأية لغة تكتب. بل انهما يغذيان قلمك بالحبر، دون علمك، او بفضل رضوخك.

اذاك تفقد تدريجيا كبرياءك التي كنت تعتبرها مبررة. اذاك تفقد استقلالك كفرد حر في اختيار أكثر اسلحته حميمية: لغته. اذاك تجد نفسك متزوجا لغة او اخرى، دون اختيار مسبق، دون حب، دون ذلك التواطؤ الذي كنت دائما تعتبره اساسيا بينك وبين اللغة، حبيبتك.

اذا انت اعتبرت ان حبك واللغة مستحيل وان زواجك من لغات تفرض عليك بحكم المصلحة لا ينتج لك اي متعة. آنذاك فطريق الطلاق تبقى مفتوحة امامك: من اللغة، من الثقافة، من الكتابة.

وانت الادرى كم يغريك هذا الطلاق، في الوطن كما في الغربة. ◇